الكتاب الرابع

الإسلام والاستبداد السياسي

للشيخ / محمد الغزالي

تحليل وعرض أ.د. عبد الخبير محمود عطا محروس

أولا: التعريف بالكتاب:

يعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي تناولت الاستبداد السياسي دراسة واقعية معاصرة جريئة اعتمدت على الأسانيد الشرعية والمرويات التاريخية.. وترجع قوة الكتاب إلى جرأته البالغة في نقد الاستبداد والطغيان في وقت كان السجن والتنكيل مصير رائدي الأقلام الحرة والضمائر الحية.. وكانت الرقابة على الصحف والكتب يؤيد بحياة الأحرار والشرفاء وتقصف بأقلامهم.

إن الفساد السياسي مرض قديم في تاريخ البشرية عامة والشعوب العربية خاصة، ولقد سبقتنا أوروبا إلى تقليم أظافر حكامها، ووضعت دساتير دقيقة لضبط مسالك حكامهم، حتى صار الحكم عندهم خدمة عامة يختار لها الأكفأ، ويراقب الحاكم من خلال أجهزة يقظة ويطرد بلا كرامة إن بدا منه ما يريب، أما في الدول العربية والإسلامية فإن الفساد السياسي بقى في أغلب ربوعه حتى الآن، وما يثير الدهشة هو الاختلاف الكبير بين تعاليم الإسلام وأحوال المسلمين.... يستعرض الشيخ محمد الغزالي في كتابه (الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية) أحوال الشعوب الإسلامية، وما يفرضه الإسلام على الحكام من مسئوليات تجاه الشعوب، وكيف تكون الشورى الإسلامية الصحيحة؟ وكيف يكون الحكم في ظل تعاليم الإسلام.

ويعد الفساد السياسي مرض قديم في تاريخنا، يقول الغزالي: «هناك حكّام

حفروا خنادق بينهم وبين جماهير الأمة.. لأن أهواءهم طافحة وشهواتهم جامحة.. لا يؤتمنون على دين الله ولا دنيا الناس.. ومع ذلك فقد عاشوا آمادًا طويلة.

وقد عاصرتُ حكامًا تدعو عليهم الشعوب، ولا تراهم إلا حجارة على صدرها توشك أن تهشمه.. انتفع بهم الاستعمال الشرقي والغربي على سواء في منع الجماهير من الأخذ بالإسلام والاحتكام إلى شرائعه.. بل انتفع بهم في إفساد البيئة حتى لا تنبت فيها كرامة فردية ولا حرية اجتماعية.. أيًا كان لونها».

لكن الاستبداد ما كان له أن يتسلط على الأمة ويصل إلى هذا الحد لولا التمكين الفكري له، لذلك نجد الغزالي يقول: «ومع هذا البلاء، فقد رأيت منتسبين إلى الدعوة الإسلامية يصورون الحكم الإسلامي المنشود تصويرًا يثير الاشمئزاز كله.. قالوا: إن للحاكم أن يأخذ برأي الكثرة أو رأي القلة، أو يجنح إلى رأي عنده وحده..!

أهذه هي الشورى التي قررها الإسلام؟ فما الاستبداد إذن؟!

ووضع بعضهم دستورًا إسلاميًا أعطى فيه رأس الدولة سلطات خرافية لا يعرفها شرق ولا غرب.. وعندما تدبرت هذا الكلام وجدت أن معايب ثلاثًا تلتقي فيه:

الأول: سوء فهم لمعنى الشورى، وغباء مطلق في إنشاء أجهزتها المشرفة على شؤون الحكم.

الثاني: عمى عن الأحداث التي أصابت المسلمين في أثناء القرون الطوال والتي نشأت عن استبداد الفرد، وغياب مجالس الشورى.

الثالث: جهل بالأصول الإنسانية التي نهضت عليها الحضارة الحديثة والرقابة الصارمة التي وضعت على تصرفات الحاكمين.

فإذا استقبل المسلمون القرن الخامس عشر، وفهم عدد منهم لوظيفة الحكم لا يتجاوز هذا النطاق العقيم.. فكيف تسير الأمة، وأين تتجه؟؟!

إن الفقه الدستوري في أمتنا يجب أن ينحسر عنه ظلال الحجَّاج، وعبيد الله بن زياد، وبعض ملوك بني العباس، وبعض سلاطين آل عثمان..».

يحاول الغزالي إذن في كتابه هذا تفكيك منظومة متكاملة من الأفكار التي تدور حول ومع الاستبداد وتخدمه، وهي مهمة ليست بالسهلة، ما كان ليتصدى لها إلا رجل في مكانة ومنزلة وجرأة الشيخ الغزالي، فمن هو الغزالي؟

ثانيا: التعريف بالشيخ الغزالي:

يعد الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – واحدًا من دعاة الإسلام العظام، ومن كبار رجال الإصلاح، اجتمع له ما لم يجتمع إلا لقليل من النابهين؛ فهو إلى جوار إيمانه الصادق، مجاهد داعية، عاش لإسلامه وعقيدته ونذر حياته كلها لخدمته، وسخر قلمه وفكره في بيان مقاصده وجلاء أهدافه، وشرح مبادئه، والذود عن حماه، والدفاع عنه ضد خصومه، لم يدع وسيلة تمكنه من بلوغ هدفه إلا سلكها في تبليغ ما يريد.

وهو مع هذا قد رزقه الله فكرًا عميقًا، وثقافة إسلامية واسعة، ومعرفة رحيبة بالإسلام؛ فأثمر ذلك كتبا عدة في ميدان الفكر الإسلامي، تُحيي أمة، وتُصلح جيلًا، وتفتح طريقًا، وتربي شبابًا، وتبني عقولًا، وترقي فكرًا.

وهو حين يكتب أديب مطبوع، ولو انقطع إلى الأدب لبلغ أرفع منازله، ولكان أديبًا من طراز حجة الأدب، ونابغة الإسلام (مصطفى صادق الرافعي)، لكنه اختار طريق الدعوة؛ فكان أديبها النابغ.

ووهبه الله فصاحة وبيانًا، يجذب من يجلس إليه، ويملك مشاعره حين يكون خطيبًا، ويوجه عقله حين يكون كاتبًا؛ فهو يخطب كما يكتب.. عذوبة ورشاقة،

وخطبه قطع من روائع الأدب.

والغزالي رجل إصلاح عالم بأدواء المجتمع الإسلامي، أوقف حياته على كشف العلل، ومحاربة الفساد في لغة واضحة لا غموض فيها ولا التواء، يجهر بما يعتقد أنه صواب دون أن يلتفت إلى سخط الحكام أو غضب المحكومين، يحرّكه إيمان راسخ وشجاعة مطبوعة، ونفس مؤمنة.

ـ المولد والنشأة:

ولد الشيخ محمد الغزالي في قرية (نكلا العنب) التابعة لمحافظة البحيرة بمصر في (٥ من ذي الحجة ١٣٣٥هـ الموافق ٢٢/ ٩/ ١٩١٧م) ونشأة في أسرة كريمة، وتربى في بيئة مؤمنة؛ فحفظ القرآن، وقرأ الحديث في منزل والده، ثم التحق بمعهد الإسكندرية الديني الابتدائي، وظل به حتى حصل على الثانوية الأزهرية، ثم انتقل إلى القاهرة سنة ١٣٥٦هـ والتحق بكلية أصول الدين.

ـ في ميدان الدعوة والفكر:

كان الميدان الذي برع فيه الشيخ الغزالي هو مجال الدعوة إلى الله على بصيرة ووعي، مستعينًا بقلمه ولسانه؛ فكان له باب ثابت في مجلة الإخوان المسلمين تحت عنوان «خواطر حية» جلَّى قلمه فيها عن قضايا الإسلام ومشكلات المسلمين المعاصرة، وقاد حملات صادقة ضد الظلم الاجتماعي وتفاوت الطبقات وتمتُّع أقلية بالخيرات في الوقت الذي يعاني السواد الأعظم من شظف العيش.

ثم ظهر أول مؤلفات الشيخ الغزالي بعنوان «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م أبان فيه أن للإسلام من الفكر الاقتصادي ما يدفع إلى الثروة والنماء والتكافل الاجتماعي بين الطبقات، ثم أتبع هذا الكتاب مجموعة أخرى من الكتب المتلاحقة التي عالجت هذه القضية بإسهاب وتوضيح.

لم ينقطع قلمه عن كتابة المقالات وتأليف الكتب، وإلقاء الخطب

والمحاضرات، وصدرت له جملة من الكتب كان لها شأنها في عالم الفكر مثل: «الإسلام والاستبداد السياسي» الذي انتصر فيه للحرية وترسيخ مبدأ الشورى، وعدّها فريضة لا فضيلة، ومُلزِمة لا مُعْلِمة، وهاجم الاستبداد والظلم وتقييد الحريات، ثم ظهرت له تأملات في: الدين والحياة، وعقيدة المسلم، وخلق المسلم.

ـ في المعتقل:

ظل الشيخ يعمل في مجال الدعوة حتى ذاعت شهرته بين الناس لصدقه وإخلاصه وفصاحته وبلاغته، حتى هبّت على جماعة «الإخوان المسلمين» التي انتمى لها بداية حياته رياح سوداء؛ وكان الشيخ الغزالي واحدًا ممن امتدت إليهم يد البطش والطغيان، فأودع معتقل الطور مع كثير من إخوانه، وظل به حتى خرج من المعتقل في سنة ١٣٦٩هـ ليواصل عمله، وهو أكثر حماسًا للدعوة، وأشد صلابة في الدفاع عن الإسلام وبيان حقائقه.

ترك الشيخ الغزالي -رحمه الله- كتبه التي ألفها، والتي تزيد على الخمسين كتابا؛ لتمثل معالم المنهج الفكري والمشروع الحضاري للإسلام، كما يراه الشيخ الغزالي -رحمه الله- ولم يكن هَمُّ الشيخ في التأليف مجرد إصدار كتب، بل كان همه وضع لَبِنَات في البناء الفكري والحضاري للأمة؛ مما جعل تلك المؤلفات بمثابة كتيبة للجهاد الفكري الغزالي؛ فقد أتت متنوعة لتشمل ما يشغل الأمة في الداخل والخارج، فتصد كيدًا من هنا، وما تلبث أن تصد آخر من هناك.

فقد جاهد -رحمه الله- الاستبداد السياسي المتمثل في الملكية المصرية، وما نجم عنها من فساد اجتماعي، وواجه تحديات الحضارة الغربية التي حاولت طمس الهوية الإسلامية، كما سعى إلى تصحيح التيار الإسلامي باختلاف أنواعه، وسعى إلى إظهار ضرورة التحرر من الجمود الفكري، والتوقف عند حرفية النصوص على طول الخط، وأبرز صورة المرأة في المجتمع كما جاءت في الكتاب والسنة.

ففـي مواجهـة الاسـتبداد المـالي والمظـالم الاجتماعيـة جـاءت كتبـه: «الإسـلام والأوضاع الاقتصادية»، و«الإسلام والمناهج الاشتراكية» و«الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين»، و«الإسلام في وجه الزحف الأحمر».

وفي ميدان الجهاد ضد الاستبداد السياسي الـذي كـان يعتبر الـشيخ علامـة مـن علاماته جاءت كتبه: «الإسلام والاستبداد السياسي»، و«حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة»، وغيرها من الأفكار المضمنة داخل الكتب.

وفي مواجهة تحديات الحضارة الغربية التي تسعى إلى طمس الهويـة الإسـلامية، وإلى التـشكيك في حقائقـه، وتـشويه صـورته، والنيـل مـن أعلامـه، ومحاولـة صرف الأنظار عنه.. جاءت كتبه: «من هنا نعلم» الذي سعى فيه لمحاربـة علمنـة الإسـلام، و«حقيقة القومية العربية»، وفيه واجه تغريب القومية العربية، و«دفـاع عـن العقيـدة والشريعة» الذي رد فيه على شبهات المستشرق المجري «جولد تـسيهر» التـي أثارهـا في كتابه: «العقيدة والشريعة»، وكذلك «الغزو الفكري يمتـد في فراغنـا» و«مـستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه»، وغير ذلك مـن كتابـات في الجهـاد الفكـري في كتبه الأخرى.

كما اهتم الشيخ الغزالي بنقـد الـذات الإسـلامية، وتجديـدها بالغـذاء الإسـلامي الصالح والصحيح؛ تجديـدًا للعقـل والقلـب، وتـصفية للرؤيـة، وترقيقًـا للمـشاعر، وكـان هـذا الميـدان مـن أكـبر الميـادين التـي كتـب فيهـا الـشيخ الغـزالي؛ لأهميتهـا في الاستعداد للنصر المنشود، وكتب في ذلك عدة كتب، أهمها: «خلق المسلم» و«جـدد حياتك»، و«التعصب والتسامح»، و«ليس من الإسلام»، و«هذا ديننا»، و«من معالم الحـق» و«كيـف نفهـم الإسـلام؟»، و«نظـرات في القـرآن» و«مـع الله.. دراسـات في الـدعوة والـدعاة»، و«معركـة المـصحف»، و«كفـاح ديـن»، و«الإسـلام والطاقـات المعطلة»، و«الجانب العاطفي من الإسلام»، و«سر تأخر المسلمين»، وغير ذلـك مـن

الكتابات في هذا الجانب.

وكان مما شغل بال الشيخ في كتاباته مواجهة الجمود الفكري، والوقوف عند حرفية النصوص، أو ما أسماها «الظاهرية البدوية» التي تقلل من شأن العقل، وتفل من عزم المسلمين في مواجهة التحديات المعاصرة، وتكرس التخلف؛ فقد ألف الشيخ بعض كتبه في هذا المجال، كان أهمها: «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» الذي شرح فيه ما يعرف بالأصول العشرين لفهم الإسلام عند الشيخ حسن البنا - رحمه الله- وهي من أهم ما يميز جماعة «الإخوان المسلمون» في التنظير الفكري؛ فشرحها، وأضاف إليها الشيخ الغزالي عشرة؛ لتتم الثلاثين، رأى الشيخ أنها تمثل مشروعًا فكريًا إصلاحيًا.

وكذلك كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» الذي سعى فيه لإعادة دور الفقهاء في الحديث الشريف، وقدم منهجًا للتعامل مع السنة النبوية المشرفة في ضوء القواعد العامة للإسلام، دون الوقوف عند المحدثين وحدهم في فهم الحديث والتعامل مع السنة.

ثالثا: أفكار الكتاب:

١- تشخيص مظاهر الاستبداد في المجتمعات الإسلامية:

لقد بلغ الاستبداد في المجتمعات الإسلامية حدًا يفوق الوصف، وانتشر على كافة الأصعدة الاجتماعية والسياسية، وأعاد صياغة مجمل الحياة والفكر الإسلامي للحفاظ على ديمومة الاستبداد ومصالح المستبدين، والشيخ الغزالي يضع يده على هذا الأمر بأسلوب نقدي لا مواربة فيه، مستشهدًا بنماذج من التاريخ الإسلامي كان لها دور كبير في ترسيخ أقدام الاستبداد، فهو يقول مثلًا: «ولو راجعنا الصحائف السود لتاريخ الاستبداد السياسي في الأرض لوجدنا مراءاة الحكام وقد وطأت أكتاف المنكر، وأقامت للأكاذيب سوقًا رائجة، وقلبت الحقائق وصنعت

الدواهي. قَتَل الخليفة، المنتصر بالله، أباه، المتوكل على الله، وتولى الحكم بعده!! وإلى هذه المأساة يشير البحتري في قصيدة مطلعها: أكان ولى العهد أظهرت غدره فمن عجب أن ولى العهد غادره! والخليفة الذي سماه الدجل السياسي، منتصر بالله، تولى على العرش بدل أن يذهب إلى السجن، ووضع على رأسه التاج بدل أن يجتز بالسكين».

ثم يذهب للقول: «وقد أجمع أئمة المسلمين على أن تقاليد الإسلام في الحكم قد تحولت عن مجراها الرشيد على عهد معاوية وأسرته ثم التاث أمر الدين واضطربت مصالح الناس ووجد من حكام المسلمين من سبق ملوك الكفر في سكرتهم وعمايتهم، وذلك من سوء حظ البشر قبل أن يكون من سوء حظ المسلمين أنفسهم».

ويؤيد ما يذهب إليه بالواقعة التالية: «في سنة ٢٤٨ هـ خلع المنتصر بالله أخويه المعتز وإبراهيم من ولاية العهد من بعده، وقد كان أبوهم المتوكل على الله قد أخذ لهم العهد في كتب كتبها وشروط شرطها، وأفرد لكل واحد منهم جزءًا من الأعمال رسمه له، وجعل ولى عهده والتالي لملكه محمدا المنتصر، وقال: المنتصر وولى عهده المعتز، والتالي المعتز وولى عهده إبراهيم المؤيد، وأُخذت البيعة على الناس كما ذكرنا.. ما هذا السخف؟ وكيف يتحكم رجل في ثلاثة أجيال من بعده على هذا النحو الشائن؟ أهو يورث أبناءه قطعانًا من البقر وإقطاعًا من الكلأ المباح؟».

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو لماذا وصل الاستبداد هذا الحد من التغول في الحياة الإسلامية؟ يلحظ الغزالي وجود روافع فكرية للاستبداد السياسي تحاول توظيف السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين لتدعيم الممارسات الاستبدادية، فيتجه بنقده الموضوعي صوب تلك الدعائم التي تلتمس مبررات واهية لتسويغ سلطة الاستبداد، عبر تأويل التاريخ الإسلامي وقراءته قراءة رغائبية، فيما يصفه

الغزالي بالافتئات على التاريخ الإسلامي فيقول:

«ربما استشهد بعضهم بموقف أبى بكر في حرب الردة واعتراض بعض الصحابة له في قتاله من نطق بالشهادتين ومن بينهم عمر بن الخطاب وإصرار أبى بكر على موقفه، ويمينه التي أقسمها على قتالهم إلى النهاية. وهذا استشهاد يَرِد في غير موضعه». ثم يؤكد ذلك بالقول: «ليس في السنة أفتيات على حق الجماعة! من الخلط أن يستشهد بالأحداث التي وقعت في عمرة الحديبية على أي عمل مما يقع في دائرة الاجتهاد العام».

ويقوده هذا المسلك لنقد الفكرة التي استقرت في الفكر السياسي الإسلامي حول عدم إلزامية الشورى في الإسلام فيقول: «وأخطأ من المفسرين من وَهِمَ أن الشورى غير ملزمة، فما جدواها إذن؟ وما غناؤها في تقويم عوج الفرد إذا كان من حقه ألا يتقيد بها؟ وأين في حياة الرسول وسيرة خلفائه ما يدل على أن الحاكم خرج على رأى مستشاريه ومضى في طريقه وحده؟».

ومن الخطأ تصور أن الشيخ الغزالي يتبنى تحليلًا سياسيًا منفصلًا لظاهرة الاستبداد، فهو يلقي الضوء بوضوح على الدعائم الاجتماعية للاستبداد السياسي في المجتمعات الإسلامية جاعلًا من الحديث الشريف مدخلًا للتحليل الاجتماعي فيذكر قوله ﷺ: «**إن الله سائل كل راعٍ عما استرعاه.. حفظ أم ضيع**»، ثم يقول: وإنك لترى أركان الفساد الاجتماعي مقترنة يزجى بعضها بعضًا إلى جهنم فيما رواه النبي ﷺ: «**عرض على أول ثلاثة يدخلون النار: أمير مسلط، وذو ثروة من مال لا يؤدى حقه، وفقير فخور**».

«الأول يمثل الاستبداد السياسي، والثاني يمثل الطغيان الرأسمالي، والثالث وهو الفقير الفخور يمثل خدم النظامين من الأتباع الذين يمشون في ركاب الكبراء والأغنياء، إنهم صعاليك، ولكنهم يفخرون بسادتهم الذين التحقوا بهم. فإذا انضم

إلى هذا الفساد الاجتماعي تأييد المحترفين من رجال الدين فقد تمت سوأته وطاشت رميته».

٢ـ أسباب الاستبداد في المجتمعات الإسلامية:

يـدفع الغـزالي إمكانيـة أن يكـون الـدين سـببًا في الاسـتبداد في المجتمعـات الإسلامية، ولعله يستبطن في دفعه هذا الآراء التي ذهبت إلى تحميل الـدين مسئولية التخلف والاستبداد، وهذه الفكرة تمثل حجر الزاوية في فكـر الـشيخ الغـزالي، فهـو يقـول: «والاسـتبداد الـسياسي الـذي وقعـت الـشعوب المسلمة فريسة لـه مـن أمـد طويل، وظلت إلى اليوم ترسف في قيوده، ليس مرده إلى أن الإسـلام نقـصته عنـاصر معينة، فأصيب معتنقوه بضعف في كيانهم كما يُصاب المحرومون من بعض الأطعمة بلين في عظامهم أو فقر في دمائهم. كلا.. ففي تعاليم الإسلام وفاء بحاجـات الأمـة كلها وضمان مطمئن لما تشتهى وفوق ما تشتهى مـن حريـات وحقـوق، إنـما بطـشت مخالب الاستبداد ببلادنا وصبغت وجوهنا بالسواد، لأن الإسلام خولف عن تعمـد وإصرار، طرحت أرضًا البديهيات الأولى من تعاليمه، وقام في بلاد الإسـلام حكـام تسرى في دمائهم جراثيم الإلحاد والفسوق والمنكرات فخرجوا سافرين عن أخلاقه وحدوده. ومع ذلك فقد فرضوا أنفسهم على الإسلام إلى يوم النـاس هـذا.. ولـو أن الإسلام ظفر يومًا بحريته، وأمكنته الأقدار أن ينتصف لنفسه، لكـان جمهـور هـؤلاء الحكام بين مشنوق ومسجون. والمخالفات التي وقعت للإسلام في بـلاده مـن شـتى الحكومات لا تفتقر إلى ذكاء حاد في إحصائها وإثباتها فهي كما قلنا تتعلق بالبديهيات الأولى ولكن المشكلة ليست في معرفة الحق.. بل في قول الحق مهما كانت النتائج».

بل هو يرى أن الدين ضحية للاستبداد «ونحن في أيامنا هذه لا نشكو فحسب من الشياطين الخرس التي تعرف الحق وتكتمه، بل نـشكو مـن أن الـولاة الفجـرة في بلاد الإسلام يجدون من يعين على الشعوب معهم، ومن يصنعون الفتاوى المكذوبـة

ليستووا في مأثمهم، والدين وحده ضحية هذا الفجور من الظالمين والمظلومين والمسوغين والمقتنعين. وانظر إلى التناقض البعيد بين فتويين، صدرت إحداهما في إيران من آية الله «كاشانى»، تنص على أن البترول ملك الأمة تستغله لمصالحها وحدها، والأخرى سمعتها وأنا في إحدى الدول العربية، وهى تنص على أن البترول ملك الحاكم ينفقه كيف يشاء.!!.».

ثم يبدأ في عرض الأسباب التي نجم عنها الاستبداد في المجتمعات الإسلامي وهي أسباب سياسية بمجملها، ترتبط بمخالفة التصور الإسلامي للحكم، أي الابتعاد عن الشريعة في مجال الحكم، وهذا واضح من قوله: «فكيف يرشح للحكم أو يبقى الحكم معه في دار الإسلام، ووظيفة الحاكم حراسة الإيمان في القلوب وحراسة الفضائل في المجتمع وحراسة» .

وأهم ما يركز عليه الغزالي في كتابه الإسلام والاستبداد السياسي كسبب مباشر للاستبداد هو ما يصفه «بالوثنية السياسية» متمثلة في «كبر الرؤساء الفجرة والأمراء الظلمة والمستبدين المتألهين. والتخليد في النار والحرمان من الجنة اللذان نطق بهما الكتاب والسنة جزاء عدل لهؤلاء المتألهين، ولعل أشد الناس شعوراً بعدالته من وقعوا تحت وطأة أولئك الكبراء المعتوهين. وللكبر إذا حكم تقاليد تحتضنه.. كما أن للعهر إذا شاع أسرًا ترتزق به!!. وكبرياء الحكام ترمز إلى ضرب من الوثنية السياسية له طقوس ومراسيم يتقنها الأشياع، ويتلقفها الرعاع على أنها بعض من نظام الحياة الخالد مع السموات والأرض، وحيث يسود الحكم المطلق تنتقص الإنسانية من أطرافها، بل من صميمها.. وذلك أن الله قد خلق البشر آحادا صحيحة وجعل لكل واحد منهم مدى معينا يمتد فيه طولا وعرضا، فإذا عن لأحدهم أن يتطاول وينتفخ ويتزيد، فعلى حساب الآخرين حتما. ومن هنا تجد من حوله أنصاف بشر أو أرباع بشر!! أصبحوا كسورا لا رجالا سواء، وما نقص من

تمام إنسانيتهم أضيف زورا إلى الكبير المغرور، فأصبح به فرعونا مالكا بعدما كان فردا كغيره من عباد الله».

٣ـ سبل القضاء على الاستبداد:

ـ العودة إلى الدين:

يحدد الغزالي هدفه من الكتاب بنقض دعائم الاستبداد، وهو يضع الاستبداد في سياق المشكلات التي تواجه العالم الإسلامي فيقول: «مكمن الداء هنالك مشاكل تبدو للنظرة الأولى شديدة التعقيد، وقد يبدو للمرء أن التماس حلولها يتطلب عبقرية نفاذة. وقد تترك هذه المشاكل على غموضها فلا يزيدها مر الزمن إلا تعسرًا وإبهامًا.. ثم يتواضع الناس بعدئذ على اعتبارها مشاكل مزمنة، يدورون فيها ولا يخرجون منها، لأنهم لا يجدون من حلقتها المفرغة مخرجًا. وأشد هذه المشاكل تعقيدًا ما كانت حلوله قائمة على البداهة وما كانت مفاتحه في متناول اليد.. ذلك أن الذهن أول ما تصادفه معضلة يذهب بعيدًا ليكشف سرها، فإذا لم يكتنهه أبعد في المذهب، وكلما عز عليه فقدانه وأوغل في نشدانه كلما ازداد حيرة وضلالًا. ولو عاد حيث كان لوجد الحل قريبًا منه..، إن الاستبداد الذي يعتبره الغزالي مكمن الداء لا يجب الذهاب بعيدًا في التماس الحلول له، والحل يبدو واضحًا في نظر الغزالي وهو بكلمات بسيطة الرجوع إلى العقيدة الصافية، فالغزالي لا تخالجه لحظة شك في أن الاستبداد خروج عن الشريعة الإسلامية التي ترتكز على العدالة، لكن الرجوع إلى الشريعة يجب أن يتم وفق ضوابط ورؤية معينة لأن «بعض الواهمين عندما يروعهم فساد الحكم وشرور المجتمع فيذهبون إلى الدين يطلبون الحل لما يعانون من أزمات معنتة، ربما توقعوا أن يمدهم الدين ببرامج مفصلة وشروح دقيقة لما يقع ولما يتوقع من طغيان، وما دروا أن الظلام الضارب في كل أفق يرجع إلى تجاهل وصية بديهية من وصايا الدين، أو الخروج على تعليم واضح من تعاليمه. وإن الأمر لا يتطلب فلسفة، ولا بسطًا لآراء، ولا ترديدًا لمذاهب، مقدار ما يتطلب التقيد التام بما فرضه

الدين في ناحية ما من النواحي التي طرقها».

العودة إلى الدين في مداواة أمراض الاستبداد تتطلب إذن عدم التشدق بالفلسفات والنظريات، إنها بتعبير الشاطبي عودة افتقار وليست عودة استظهار، ويمثل هذا الأمر بنظر الغزالي الشرط الأساسي للقضاء على الاستبداد.

لكنه أيضا يومئ إلى أمر أخر هو فاعلية ودور الإنسان في القضاء على الاستبداد، فالدين لا يحمل حلولًا جاهزة لمشكلات البشرية، لكنه يقدم الحافز والإيمان ويوجه النشاط المعرفي صوب المشكلات التي يعاني منها البشر وهو بهذه الكيفية يضع قدم الإنسان على الطريق الصحيح إذا ما أراد أن يكمل الدرب ويتحمل مشاقه.

«إن تنظيف العالم الإسلامي من الغرور والغش والادعاء، ومن السرقة والنهب والاستعلاء، كفيل باجتثاث جذور الاستبداد، وإراحة الدين والدنيا من ويلاته».

ـ القضاء على الوثنية السياسية:

التأكيد على دور كلمة التوحيد لأنها الضد لوثنية السياسة «ولما كان الإسلام إنقاذًا للناس من جهالاتهم المتوارثة، وحماية للفطرة من أن تأكلها تقاليد السوء وقوانين الاستبداد الأعمى، فقد جعل كلمة التوحيد وهى عنوانه وحقيقته نفيًا للوثنيات كلها ورفضًا لأية عبودية في الأرض وتدعيما للحرية التي ذرأ الله الناس عليها والكمال الذي رشحهم له.. ذلك بعض ما تعنيه الكلمة العظيمة «لا إله إلا الله» وهى الكلمة التي يرددها الألوف دون وعى.. بل لعلهم يعيشون في ظلها عبيد أوهام».

تصحيح مفهوم الطاعة وإعادة الحاكم المسلم إلى وضعه الصحيح:

إن من أكثر التشوهات التي لحقت بالفكر الإسلامي وأدت إلى ترسيخ أقدام

الاستبداد هي المبالغة في طاعة الحاكم، وتلك الطاعة السلبية نقلت الحكام من وضعهم السياسي كوكلاء للأمة يقومون على خدمتها وتحقيق أهدافها ورعاية شؤونها، إلى متحكمين في أرزاقها ومصائرها، لذلك يرى الغزالي أنه لابد من تصحيح مفهوم الطاعة ليعود الحاكم المسلم «رجل من صميم الأمة يطلب أن يعان على الحق وأن يمنع من الباطل، ويرى السلطة المخولة له سياجًا للمصالح العامة لا مصيدة للمنافع الخاصة ولا بابًا إلى البطر والطغيان. وذلك هو أدب الإسلام الذي خط مصارع الجبابرة في الدنيا وحط منازلهم في الآخرة «فالحاكم المسلم» ليس سيدًا ليستعلى ويستعلن، وإنما ليؤدى عملًا موكولًا به، وذلك سر قول أبى بكر وعمر: وليت عليكم ولست بخيركم..».

لكن إعادة الحاكم المسلم إلى موقعه الطبيعي يتطلب أيضًا تحديد موقع المواطن المسلم» وكذلك المحكوم المسلم إنه ليس تابعًا ليتملق ويرائي ويعطى الدنية من نفسه.. بل ليعين على الخير ويحجز عن الشر ويشارك في حمل العبء. وهذا سر قول عمر للناس: إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، فقال له رجل من أخريات المسجد: لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناك بسيوفنا» .

- القضاء على الرياء بين السادة والأتباع، فخطر هذا الرياء لا يقتصر على علاقة السادة بالأتباع لكنه يتحول إلى ما يشبه النفاق الاجتماعي، الذي يكون من نتائجه الهدامة تسويغ المعاصي واحتقار الطاعات وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم التناصح، يقول الغزالي: «وحيث يوجد السادة المستكبرون يوجد الأتباع المتملقون والأشياع المراؤون. وجو الحكم المطلق أحفل الأجواء بجماهير العبيد الراضخين للهون عن طواعية أو كراهية، وفي الحرب التي شنها القرآن الكريم على هذه المجتمعات المظلمة ترى الهجوم يتتابع على مبدأ 'السيادة والتبعية ' وعلى ما يلحق هذا الجو إلغاء للعقول والضمائر ويجب أن يمنع عن الخوض فيه

شيوخ يقولون: إن الرسولﷺ افتأت على الصحابة في عمرة الحديبية.. فمن حق غيره أن يفتئت على الناس ويتجاوز آراءهم إن ذلك الضلال في تصوير الإسلام يفقد الإسلام حق الحياة.. - والمعروف أن الرسول ﷺ احترم الشورى، ونزل على حكمها فيما لا وحي فيه، وأن قصة الحديبية تصرف فيها الرسولﷺ على النحو المروي لما حبس ناقته حابس الفيل، وأحس أن الله - تعالى - يلزمه بمسلك يجنب الحرم ويلات حرب سيئة».

ثم يركز على المدخل السياسي في القضاء على الاستبداد مؤكدًا على أهمية دور العلماء في ذلك فيقول: «ويؤسفني أن الكلام عن تكوين الدولة عندنا تعرّض له أقوام على حظ كبير من الطفولة العقلية، أو على حظ منا لزلفى يكسبون به الدنيا ويفقدون به الإيمان. إصلاح أداة الحكم وأصله الأول يحتاج إلى فقهاء أتقياء أذكياء..».

إحياء واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

«إن هذه الأمة لا تنال من الله نصرًا، ولا تستحق في الأرض تمكينًا إلا إذا احتفظت بهذه الخصائص الجليلة، وأنبتت عليها في الداخل العلاقات بين الحكومة والشعب، وأنبتت عليها في الخارج العلاقات بين الدولة المسلمة وسائر دول العالم.... ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠]. والحق أن أمتنا فرطت في هذه الشعائر التي ناطها الله بها تفريطًا شنيعًا، فلا جرم أنها تُحرَم من رعاية الله، وتنالها هذه اللطمات القاسيات من يد القدر العدل!. ذلك أن صوت الخير لم يختنق عندنا فحسب، بل كشف الشر عن وجهه الكالح، وكشر عن أنيابه الزرق صارخًا مهددًا».

الاستعمار ودوره في غرس الاستبداد:

لا يغفـل الـشيخ الغـزالي دور الاسـتعمار في زرع وتقويـة الاسـتبداد في العـالم الإسلامي، فالاستبداد والاستعمار وجهان لعملة واحدة وكـل منهما يشكل دعامة للآخـر وهـو يستعرض المراحـل التي تـم فيهـا غـرس الاسـتبداد الحـديث في العـالم الإسلامي بالقول «هذه هـي الأمـاني المعسولة التي لوحـت بهـا دجاجلة السياسة. وأقرتهـا إنجلـترا التـي تَسْتَرِق نـصف العـالم. وسـمع النـاس الآمـال الحلـوة للأمـم المستـضعفة مـن فـم «تـشرشل» كـما لـو أنهـم يـسمعون إلى عبـارات الإيـمان مـن فـم «إبليس» . ثم جاء طور «هيئة الأم المتحدة» وحسب الواهمون أن الخرافة الكبرى قد تتحـول إلى حقيقـة! ولكـن الـسراب لم يتحـول في أفـواه الظـامئين إلى مـاء فـرات.. وكذلك دارت الرحى المجنونة على الأكباد مرة أخرى، وعادت الصليبية الغربية إلى أسـاليبها العتيقـة في اسـتغلال بلادنـا واسـتنزاف دمائنـا واصـطناع نفـر مـن الحكـام السفلة يعملون لحسابها!. وانـضمت أمريكـا كحليـف جديـد إلى فرنـسا وإنجلـترا.. وبدأت الحلقات تضيق حول المسلمين الأحـرار لـشل نـشاطهم في كفـاح الأجانـب المحتلين ومن يحيا في كنفهم من الإقطاعيين والمستغلين».

كشف عقلية الاستبداد:

يتقـدم الـشيخ الغـزالي خطـوات واسـعة محـاولًا كـشف عقليـة الاسـتبداد، فالاستبداد قبل أن يكون سـلطة تحكُّـم فإنـه فكـرة ومـشاعر وأمزجـة تخـالط الـنفس البشرية فتدفع بها إلى مهاوي الطغيان «إن عقـول المستبدين لا تعـرف مبـدأ التفـاهم ولا تطيق الأخـذ والـرد للوصـول إلى الحـق! ويكـاد لا ينبعـث صـوت للخـير حتـى يلاحقه سوط من الإرهاب يطلـب إمـا إخراسـه وإمـا قتلـه !!. وعنـدما فـرض هـذا الاستبداد نفسه على الأديان فيما بعد وضع مبـدأ: مـن قـال لـشيخه: لم؟.. فقـد حـرم بركته!!. وإذن فكيف تسير الأمور؟!. تـسير بـالأوامر العـسكرية الجافـة تـصدر مـن شخص خلقه الوهم إلى أشخاص لا يملكـون لأنفـسهم ضرًا ولا نفعًـا ولا لغـيرهم

نقدًا ولا ردًا!!.».

هكذا يبدو الاستبداد ثقافة تسيطر على صاحبها وتضعه في مكان يتصور فيه أنه أقوى من الجميع وأنه يمتلك من المزايا ما يجعله مستحقًا للطاعة دون غيره، فهو لذلك لا يقبل الحوار أو التفاهم أو النزول عن رأي ارتآه.

رابعا- الإسهام العلمي للكتاب وأثره على حياة الأمة:

كان هَمُّ العلماء والمصلحين المسلمين منذ أواخر التاسع عشر تقويض أركان الاستبداد وكشفه والتحذير منه، فالاستبداد أصل كل فساد، وفي هذا السياق انتظمت أعمال الإمام محمد عبده والأفغاني والكواكبي وخير الدين التونسي وغيرهم من أعلام النهضة العربية، وأن يأتي الشيخ الغزالي في منتصف القرن العشرين ليكتب عن الاستبداد محذرًا الأمة من مخاطره، داعيًا إياها سرعة التخلص منه، يعني تجذر هذه الظاهرة في مجتمعاتنا الإسلامية، بل ربما إنها زادت اتساعًا وجبروتًا عما كانت عليه في العصور المتقدمة، مستفيدة من عوامل شتى أهمها فقهاء السلاطين، وأقلام المستكتبين، وركون الأمة إلى حكامها في تسيير شؤونها وتدبير مصالحها.

لا يعني أن يعيد الشيخ الغزالي بوزنه العلمي المعروف الكتابة حول هذا الموضوع إخفاق جهود الإصلاح التي قام بها رواد النهضة العربية، لكنه يشير بوضوح إلى الملامح الجديدة التي يتمظهر بها الاستبداد والتي كان لابد أن يتم كشفها، حتى لا يلتبس الحق بالباطل، فنظم الحكم في البلاد الإسلامية لا تفتأ تبتدع أشكالًا جديدة من الممارسات والتنظيمات والقوانين التي قد يظن المسلم إنها تقربها من الشورى، أو تضعها في دائرة الشرعية الدينية، لكن التمعن في تلك الأشكال والصور سرعان ما يكشف عن جوهر استبدادي كامن في قعر تلك الممارسات والصور، فكان لابد من استئناف القول في تعرية الاستبداد وكشف أدواته وأسبابه، ليتنبه المخدوعون والسائرون وراء سراب الإصلاحات.

من هنا يبدو الإسهام الجليل الذي قدمه هذا الكتاب مرتبطًا بكشف طرائق الاستبداد الجديدة، ومحاولة منع تمدده، فالظاهرة الاستبدادية كما يقدمها الغزالي قائمة على دعائم اجتماعية وفكرية متشعبة عني ، هذا الكتاب بتفكيكها، وإلحاقها ببنية الاستبداد، والجرأة التي يطرح فيها الشيخ الغزالي أفكاره في هذا الكتاب لا تدع سبيلًا لإمكانية التماس الأعذار أو تأجيل خوض المعركة ضد الاستبداد، فالكتاب صريح في الدعوة إلى تنوير الفكر ليقوم بمهمة التغيير، مستندًا على روح الشريعة ونصوصها القاطعة في رفض الطغيان والاستبداد، وتاريخ طويل قاوم فيه المسلمون صنوفًا عاتية من النظم المستبدة.

وترك الشيخ الغزالي -رحمه الله- كتبه التي ألفها، والتي تزيد على الخمسين كتابا؛ لتمثل معالم المنهج الفكري والمشروع الحضاري للإسلام، كما يراه الشيخ الغزالي - رحمه الله - ولم يكن هَمُّ الشيخ في التأليف مجرد إصدار كتب، بل كان همه وضع لَبِنَات في البناء الفكري والحضاري للأمة؛ مما جعل تلك المؤلفات بمثابة كتيبة للجهاد الفكري الغزالي؛ فقد أتت متنوعة لتشمل ما يشغل الأمة في الداخل والخارج، فتصد كيدًا من هنا، وما تلبث أن تصد آخر من هناك.

فقد جاهد -رحمه الله- الاستبداد السياسي المتمثل في الملكية المصرية، وما نجم عنها من فساد اجتماعي، وواجه تحديات الحضارة الغربية التي حاولت طمس الهوية الإسلامية، كما سعى إلى تصحيح التيار الإسلامي باختلاف أنواعه، وسعى إلى إظهار ضرورة التحرر من الجمود الفكري، والتوقف عند حرفية النصوص على طول الخط، وأبرز صورة المرأة في المجتمع كما جاءت في الكتاب والسنة.

ففي مواجهة الاستبداد المالي والمظالم الاجتماعية جاءت كتبه: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية»، و«الإسلام والمناهج الاشتراكية» و«الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين»، و«الإسلام في وجه الزحف الأحمر».

وفي ميدان الجهاد ضد الاستبداد السياسي الذي كان يعتبر الشيخ علامة من علاماته جاءت كتبه: «الإسلام والاستبداد السياسي»، و«حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة»، وغيرها من الأفكار المضمنة داخل الكتب.

وفي مواجهة تحديات الحضارة الغربية التي تسعى إلى طمس الهوية الإسلامية، وإلى التشكيك في حقائقه، وتشويه صورته، والنيل من أعلامه، ومحاولة صرف الأنظار عنه.. جاءت كتبه: «من هنا نعلم» الذي سعى فيه لمحاربة علمنة الإسلام، و«حقيقة القومية العربية»، وفيه واجه تغريب القومية العربية، و«دفاع عن العقيدة والشريعة» الذي رد فيه على شبهات المستشرق المجري «جولد تسيهر» التي أثارها في كتابه: «العقيدة والشريعة»، وكذلك «الغزو الفكري يمتد في فراغنا» و«مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه»، وغير ذلك من كتابات في الجهاد الفكري في كتبه الأخرى.

كما اهتم الشيخ الغزالي بنقد الذات الإسلامية، وتجديدها بالغذاء الإسلامي الصالح والصحيح؛ تجديدًا للعقل والقلب، وتصفية للرؤية، وترقيقًا للمشاعر، وكان هذا الميدان من أكبر الميادين التي كتب فيها الشيخ الغزالي؛ لأهميتها في الاستعداد للنصر المنشود، وكتب في كذلك عدة كتب، أهمها: «خلق المسلم» و«جدد حياتك»، و«التعصب والتسامح»، و«ليس من الإسلام»، و«هذا ديننا»، و«من معالم الحق» و«كيف نفهم الإسلام؟»، و«نظرات في القرآن» و«مع الله.. دراسات في الدعوة والدعاة»، و«معركة المصحف»، و«كفاح دين»، و«الإسلام والطاقات المعطلة»، و«الجانب العاطفي من الإسلام»، و«سر تأخر المسلمين»، وغير ذلك من الكتابات في هذا الجانب.

وكان مما شغل بال الشيخ في كتاباته مواجهة الجمود الفكري، والوقوف عند حرفية النصوص، أو ما أسماها «الظاهرية البدوية» التي تقلل من شأن العقل، وتفل

من عزم المسلمين في مواجهة التحديات المعاصرة، وتكرس التخلف؛ فقد ألف الشيخ بعض كتبه في هذا المجال، كان أهمها: «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» الذي شرح فيه ما يعرف بالأصول العشرين لفهم الإسلام عند الشيخ حسن البنا - رحمه الله- وهي من أهم ما يميز جماعة «الإخوان المسلمون» في التنظير الفكري؛ فشرحها، وأضاف إليها الشيخ الغزالي عشرة؛ لتتم الثلاثين، رأى الشيخ أنها تمثل مشروعا فكريا إصلاحيا.

وكذلك كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» الذي سعى فيه لإعادة دور الفقهاء في الحديث الشريف، وقدم منهجًا للتعامل مع السنة النبوية المشرفة في ضوء القواعد العامة للإسلام، دون الوقوف عند المحدثين وحدهم في فهم الحديث والتعامل مع السنة.

وتلك هي كتب الشيخ الغزالي مرتبة حسب تاريخ صدورها:

١- الإسلام والأوضاع الاقتصادية .

٢- الإسلام والمناهج الاشتراكية .

٣- الإسلام والاستبداد السياسي .

٤- الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين .

٥- من هنا نعلم .

٦- تأملات في الدين والحياة .

٧- خلق المسلم .

٨- عقيدة المسلم .

٩- التعصب والتسامح .

obeikan.com

١٠- فقه السيرة .

١١- في موكب الدعاة .

١٢- ظلام من الغرب .

١٣- جدد حياتك .

١٤- ليس من الإسلام .

١٥- من معالم الحق .

١٦- كيف نفهم الإسلام .

١٧- الاستعمار أحقاد وأطماع .

١٨- نظرات في القرآن .

١٩- مع الله - دراسات في الدعوة والدعاة .

٢٠- معركة المصحف .

٢١- كفاح دين .

٢٢- الإسلام والطاقات المعطلة .

٢٣- حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلام الأمم المتحدة .

٢٤- هذا ديننا .

٢٥- حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي .

٢٦- الجانب العاطفي من الإسلام .

٢٧- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين .

٢٨- ركائز الإيمان بين العقل والقلب .

obeikan.com

٢٩- حصاد الغرور .

٣٠- الإسلام في وجه الزحف الأحمر .

٣١- قذائف الحق .

٣٢- الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر .

٣٣- فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء .

٣٤- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين .

٣٥- واقع العالم الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر .

٣٦- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية .

٣٧- هموم داعية .

٣٨- مائة سؤال عن الإسلام .

٣٩- علل وأدوية .

٤٠- مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه .

٤١- قصة حياة .

٤٢- سر تأخر العرب والمسلمين .

٤٣- الطريق من هنا .

٤٤- جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج .

٤٥- القومية العربية .

٤٦- الحق المر .

٤٧- من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث .

obeikan.com

٤٨- الغزو الثقافي يمتد في فراغنا .

٤٩- المحاور الخمسة للقرآن الكريم .

٥٠- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث .

٥١- قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة .

٥٢- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل .

٥٣- كيف نتعامل مع القرآن الكريم .

٥٤- صيحة تحذير من دعاة التنصير .

٥٥- نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم.

٥٦- كنوز من السنة.

*****

obeikan.com